العنوان:	فضاءات الحب في كتاب "طوق الحمامة " لابن حزم الأندلسي
المصدر:	التعليمية
الناشر:	جامعة جيلالي ليابس سيدي بلعباس - كلية الآداب واللغات والفنون - مخبر تجديد البحث في تعليمية اللغة العربية في المنظومة التربوية الجزائرية
المؤلف الرئيسي:	بوصالح، نزيهة
المجلد/العدد:	مج6, ع2
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2019
الشهر:	جوان
الصفحات:	155 - 164
DOI:	10.52127/2240-006-002-013
رقم MD:	1114680
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	EduSearch, AraBase
مواضيع:	الفقه الأندلسي، الشعر العربي، كتاب طوق الحمامة، ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد، ت. 456 هـ.
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/1114680

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

للإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

بوصالح، نزيهة. (2019). فضاءات الحب في كتاب "طوق الحمامة " لابن حزم الأندلسي.التعليمية، مج6, ع2 ، 155 - 164. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/1114680

إسلوب MLA

بوصالح، نزيهة. "فضاءات الحب في كتاب "طوق الحمامة " لابن حزم الأندلسي."التعليميةمج6, ع2 (2019): 155 - 164. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/1114680

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

فضاءات الحب في كتاب "طوق الحمامة " لابن حزم الأندلسي

The spaces of love in the book "Tawk El-Hamama" to Ibn Hazm Andaluci

بوصالح نزيهة

كلية الآداب واللغات والفنون

جامعة الجيلالي ليابس-سيدي بلعباس (الجزائر)

تاريخ الإرسال: 2019/01/11 تاريخ القبول:2019/05/16 تاريخ النشر: 2019/06/07

المرسل: **Tedj Boudali**

البريد الإلكتروني: **tedj_boudali@live.fr**

الملخص:

ينطلق مقالي من فكرة أن الحب كان له شأن عظيم في كتابات ابن حزم الأندلسي من خلال نصوصه التي بثها في طوق الحمامة،وكما للمشاعر أماكن يلجأ اليها أصحابه، فإنه قام بدراسة بعض الفضاءات التي اتسمت بمظاهر بيئية أندلسية خالصة كالمسجد والحدائق والحوانيت. ولا غرو أن ينتفض المؤلف عبر أفكاره التي استدعت نصوصا رائعة، قمت بتحليلها والآنصات الى قائليها، فدرست الفضاء والحيز المكاني من منظور ابن حزم، وهي دراسة مستفيضة ومتعمقة في فكر ابن حزم، وأجبت عن الكثير من الأسئلة الأدبية والعقدية.

الكلمات المفتاحية: ابن حزم–الفضاء–الحب.

Abstract : My article is based on the idea that love was of great interest in the writings of Ibn Hazm Andalusi through his texts which were broadcast in the circle of the pigeon. As for the feelings of his companions, he studied some of the spaces that were characterized by pure Andalusian landscapes such as the mosque, gardens and shops. It is not surprising that the author rises up through his ideas, which called for wonderful texts, which I analyzed and listened to. I studied space and spatial space from the perspective of Ibn Hazm, an extensive and in-depth study of Ibn Hazm's thought.

Keywords: Ibn Hazm-Space-Love.

مقدمة:

يُعد الفضاء من المكونات الأساسية للخبر في" طوق الحمامة "لابن حزم، إذ لا يمكن أن نتصور حدوث فعل الحب خارج إطاره،كما أنّ له" قدرة على التأثير في تصوير الأشخاص وحبك الحوادث مثلما للشخصيات أثر في صياغة المبنى الحكائي،فالتفاعل بين الأمكنة والشخوص؛شيء دائم ومستمر في تكوين المكان،وما يعروه من تغيّر في بعض الأحيان، يؤثر تأثيرا كبيرا في تكوين الشخوص فكيف يكون وصف الأمكنة من الدوافع التي تجعلنا نفهم الأسرار العميقة للمتحابين.؟"[1]

ومثلما لا يمكن فصل الفضاء عن الزمان، كذلك لا يمكن عزله عن الوصف، إذ إنه" يكتسب أهمية كبيرة بالنسبة للسرد، وذلك لحظة وصفه بشكل مطول ودقيق، مثلما يكتسب هذه الأهمية أيضا عندما نراه يؤسس مع غيره من الأمكنة الموصوفة لفضاء الحب "[2]

بيد أن فضاء الحب في"طوق الحمامة "لا يتخذ صورة واحدة،وإنما يتنوع وتتعدد أنواعه قد يكون مجهولا ومجردا من ملامحه وخصوصياته، وقد يتمتع بوجود حقيقي، وانطلاقا من ذلك يكون واقعيا وتاريخيا وقد يتبدّى في صورة الفضاء الأليف الذي يتفاعل معه العشاق بايجابية وراحة،ولاسيّما عندما يرتبط بالذاكرة، ففي هذه الحالة يتألّق أكثر بالشوق والحنين ثم إن الفضاء الأليف هو "ملتقى الأحبة قد يكون مدينة أو منزلا أو روضا أو بستانا وكل ماله أثر مثقل في نفس الإنسان وفي هذا المكان نلمس علاقة ارتباط بين الذات الإنسانية والمكان، هذه العلاقة الارتباطية أشبه بعلاقة الروح بالجسد."[3]

وفي السياق نفسه لا يمكن أن نغفل الترابط العضوي بين الفضاء واللغة حيث أنه "لا يوجد إلاّ من خلال اللغة، فهو فضاء لفظي Espace verbal بامتياز إنه فضاء لا يوجد سوى من خلال الكلمات "[4] التي تصوغ جماليته.

والمتأمل في فضاء" طوق الحمامة "سيجده متلونا بجمال الطبيعة الأندلسية، بل سيزداد بهاء عندما يرتبط بالحبيبة وعلى هذا الأساس يتحول المكان إلى حالة إنسانية تنبض بفرح اللقاء وحزن الفراق ومن هذا المنطلق أيضا نلفي الفضاءات متحوّلة بحسب نفسية المتحابين ولكن ليس بالضرورة أن تقدم للمتلقي في جميع الأحوال بصورتها الواقعية فللخيال أيضا يد في رسمها ووصفها.

كما يجدر بنا في هذا الإطار أن نشير إلى أنّ رسالة" طوق الحمامة " تعبر في أحد جوانبها عن الهرم الاجتماعي في تقاطعه الطبقي الحاد، حيث يكاد الحب في" الطوق" أن يكون مقصورا على الطبقات الثرية والعلية من الأمراء والخلفاء والقادة والوزراء، ومن في سمتهم، ومعظم قصص الكتاب تتحدث عن عشق هؤلاء، وما يتصل بهذا العشق من حكايات الجواري وأخبارهن ونكاد لا نعثر على قصص للحبّ خارج إطار الفئات الاجتماعية العليا ..يدور معظم الحب في "الطوق –"إذا –في أبهاء القصور وكل من يحاول أن يمسّ هذه الدائرة المحرّمة أو يخترق أسوارها، يكون مصيره فاجعا "[5] وفضلا عن ذلك فقد أتاح لنا كتاب" طوق الحمامة "الوقوف على فضاءات أخرى، لها فاعليتها وبخاصة من حيث علاقتها بفعل الحب، ويمكن أن نرصد بعضها على النحو التالي:

أ – الفضاء المجهول:

عندما نعاين بعض الفضاءات التي تقدمها لنا الأخبار التي أوردها ابن حزم في"طوق الحمامة "نجدها مجهولة، وغير محدّدة الملامح ولذلك تكاد تكون التفاصيل المكانية محجوبة ومن الممكن تبيّن ذلك من الخبر الذي أورده ابن حزم في " الكلام في ماهية الحب"، وكان قد مرّ بنا في حديثنا عن" علامات الحب"، حيث تبدى فضاء الحب مجهولا، بينما آثاره بادية على المحب جسديا ونفسيا بل إن ملفوظ الراوي "وقد جالسته يوما"[6]يعزز هذا التصوّر أنّ مكان الجلوس غير معلوم والزمن هو الآخر مضبّب، رغم أنه يحيل على الماضي.

وفي السياق نفسه يجنح الراوي إلى التعمية على الفضاء فيلتقى المروي له حدث الزيارة محفوفا بالانتظار، ولكنّ زمنه ومكان وقوعه غير معروفين وهذا ما نستشفه من خلال هذا الخبر "وإني لأعلم بعض من كان محبوبه يعده الزيارة، فما كنت أراه إلا جائيا وذاهبا لا يقرّ به القرار ولا يتبث في مكان واحد، مقبلا مدبرا قد استخفّه السرور بعد ركانة، أشاطه

بعد رزانة"[7]وانطلاقا ممّا تقدّم يتبدّى المحب متحرّكا ومع ذلك فإقباله وإدباره لا يجعل المكان المتعدّد" لا يثبت في مكان واحد.

ثم إنّ اللاّتحديد قد يطبع المكان الذي يتواجد فيه الراوي وقد يوسم به المكان الذي كان مقصدا له.

ولا أدل على ذلك من الخبر[8] الذي أورده ابن حزم في باب" فضل التعفف"حيث أخبرنا أنّه كان مدعوا إلى مجلس محبّب لا منكر فيه والملاحظ في هذا الخبر أن لفظ(مجلس)لم يذكر بطريقة عرضية، فهو أولا يدل على العموم ويتأكد ذلك بجلاء من خلال التنكير الملازم له.

ولا نعرف عنه سوى أنه فضاء للحسن والجمال والأخلاق والعفة ويمكن في الوقت نفسه أن نتبيّن أن المتكلّم قد تراجع عند الذهاب إلى المكان الذي كان يروم السير إليه وعلى هذا النحو ظل الفضاء مطموس المعالم بل إن الزمن الذي اقترن به لم يسهم هو الآخر في الإفصاح عنه إذ لم يتح لنا وقت" السحر "و"الصبح"معرفة هوية المكان المقصود.

الظاهر أن إخفاء المكان والزمان كان فعلا مقصودا من ابن حزم، إمّا لأنّ العاشقين معروفون، أو لأن التحديد المكاني والزماني سيجردّ تجربة العشق من خصوصيتها فيصبح ابن حزم مدانا بفضحها والتشهير بها ولهذا كثيرا ما نجده في الأخبار التي يرويها مبعث الاطمئنان للمحبين وهذا ما نعاينه في الخبر الذي أورده في" باب الرقيب "حيث كان ابن حزم هو الراوي الشاهد، فتبيّن لنا من هذا الخبر كأنّ الحدث يجري خارج الزمان والمكان، فكلاهما مشمول بالتنكير التالي"ولقد شاهدت يوما محبّين في مكان"[9] ،وحتىّ الأفعال نجدها قد دلّت على الزمن الماضي" شاهدت، ظنا، طلع، رأيت "ويترسخ هذا المنظور الفضائي بوضعية "الخلوة" التي كان عليها المتحابان.

وانطلاقا مّا سبق، يصعب التحديد الدقيق للفضاء الذي ورد في بعض أخبار"طوق الحمامة "إذ غلب عليه التجريد، فتبدّى بلا تفاصيل ،بخاصة أن الاهتمام في هذه الحالات قد توجه في الغالب إلى إبراز الشخصية على المستويين النفسي والسلوكي وما تكابده من حب.

ب – الفضاء التاريخي/الواقعي:

إذا كانت بعض الفضاءات موسومة بالعموم والتجريد كما وضحنا ذلك سلفا، فإنّ فضاءات أخرى تحيل على أحداث تاريخية وواقعية لما تنطوي عليه من عناصر زمانية ومكانية،وعلى الخصوص ارتباطها بشخصيات كان لها حضورها المميز في الأندلس ولا شك أن هذا الأمر يجعل الخبر أكثر مصداقية وما يمكن الانتباه إليه في هذا السياق، هو أنّ رصد الفضاء التاريخي يتيح لنا الوقوف على التجارب الحياتية لابن حزم، بل يكشف لنا أيضا التحوّلات السياسية والاجتماعية والنفسية التي واكبها أو تفاعل معها ابن حزم ،والأهم من ذلك كلّه، أنّه سيتكلّف بتجلية تيمة الحب التي هي في الأساس لحمة الخبر في"طوق الحمامة".

واللاّفت للنظر هو تنوّع الفضاءات التاريخية، وتوسّع وظيفتها، حيث أنه لا تتجاوز إبراز العلاقات المكانية والزمانية إلى التأشير على تأثيرها في بناء الشخصية والحدث والتجسيد اللغوي للفضاء وبناء على ذلك، فإنّ ابن حزم" يحسن التقاط واقتناص العلاقات المكانية الأكثر دلالة على طبيعة الشخصيات وعلى موقعها الاجتماعي وعلى موقعها الثقافي"[10] ومن هنا كانت أهمية اللإطار المكاني والسياق التاريخي المحيط به في الكتاب.

ومن هذه الزاوية نجد في "طوق الحمامة "لابن حزم فضاءات متعددة ومجسّدة للبناء الاجتماعي العمراني في الأندلس ويمكن، في هذا المضمار أن نستفيد من فهرس الأماكن الذي ذكره احسان عباس في خاتمة [11]رسائل ابن حزم الأندلسيّ "ولعل أولّ ما نلمحه هو تنوّع الأمكنة، وهي إما بلدان "الصين الهند، لبنان، الأندلس أو مدن"المرية، قرطبة، البصرة، بغداد، الرصافة، سبتة، سرقسطة، خراسان، شاطبة، صقلية، غرناطة،القيروان، مالقة، المدينة المنورة"وحصون ودروب وقناطر ومساجد ومقابر وأنهار وغيرها من الفضاءات.

والمتأمّل في أخبار طوق الحمامة يلفي أنّ ابن حزم قد" ذكر الأماكن الأندلسيّة القرطبيّة على وجه الخصوص بطريقة تفصيلية، يظهر منها الكثير من معالم قرطبة، طرقها ومساجدها ومقابرها ومنازل بني حزم بهاونعثر على تحديد لموقع دار ابن حزم في قرطبة وذكر الكثير من ملامحها في العديد من الأخبار العامة والأخبار السير ذاتية على وجه الخصوص" [12] وفضلا عن ذلك،" تشتمل الأخبار التاريخية على ذكر الكثير من الدور القرطبيةومجالس بعض الأكابر الملوك وأركان الدولةودور بعض الرؤساء وبعض مياسير أهل قرطبة"[13]وبهذا يمكن القول بأنّ الفضاء في" طوق الحمامة" مكوّن مركزي في الخبر.

وحتى نوضّح كيفية اشتغال الفضاء التاريخي الواقعي نتوسّل ببعض الأخبار التي أشرنا إليها سابقا، ونخص منها ما ارتبط بمدينة" المرية" لقد ذكر فضاء مدينة" المريّة "للمرّة الأولى في مستهل الكتاب حيث إنّ ابن حزم تعامل معه بوصفه منطلقا لرسالة صديقه، وفي المقابل استحضر مدينة" شاطبة "بكونها مكان إقامته وهكذا لم يتم التركيز على الفضاءين معا، إذ إنّ ملامحها غائبة تماما وذلك لأن مضمون الرسالة كان هو مركز الاهتمام . فالمهم في هذه الحالة أن يجد ابن حزم لنفسه ذريعة للكتابة عن تيمة الحب.

ومع ذلك، فهو يلمح إلى طول المسافة بين المدينتين،وفي هذا الشأن يقول:"فإنّ كتابك وردني من مدينة المريّة إلى مسكني بحضرة شاطبة، تذكر من حسن حالك ما يسرّني، وحمدت الله عزّ وجل عليه استدمته لك واستزدته فيك، ثمّ لم ألبث أن اطّلع على شخصك وقصدتني بنفسك، على بعد الشّقة وتنائي الديار وشحط المزار وطول المسافة وغول الطريق."[14] وحتى يكتمل تصوّرنا عن فضاء" المريّة "نتفحصه من خلال الأخبار التالية:

الخبر الأول:

"ولقد كنت يوما بالمرية قاعدا في دكان إسماعيل بن يونس الطبيب الإسرائيلي، وكان بصيرا بالفراسة محسنا لها وكنّا في لمّة، فقال له مجاهد بن الحصين القيسي : ما تقول في هذا ؟ وأشار إلى رجل منتبذ عنّا ناحية اسمه حاتم ويكنى أبا البقاء، فنظر اليه ساعة يسيرة ثم قال :هو رجل عاشق، فقال له :صدقت، فمن أين قلت هذا ؟ قال لبهت مفرط ظاهر على وجهه فقط دون سائر حركاته ، فعلمت أنّه عاشق وليس بمريب "[15]

نلاحظ من خلال الخبر الأوّل أن فضاء مدينته" المريّة "فضاء واسع، ولكنّه مجرد إطار للحدث، بل إنّه يضيق بعد اتّساع ، فيتجسّد في جزء منه، وهو دكان إسماعيل بن يونس الطبيب الإسرائيلي وعلى هذا النحو، نرصد التراتبية الفضائية في هذا الخبر، إذ تدرّجت من العام الى الخاص، ومن المفتوح إلى المغلق، وذلك لأنّ الدكان أكثر انحصارا مع

انفتاحه النسبي بالقياس إلى المدينة. ثم هناك إشارة مكانية تحيل على انعزال العاشق"منتبذا عنّا ناحية "وفضلا عن ذلك، نستطيع القول بأنّ هناك فضاء غير مصرّح به وهو فضاء الأمان، ويكشفه التفاعل الاجتماعي بين المسلمين واليهود.

وضمن هذا الإطار يمكننا الحديث، أيضا، عن الترابط بين الفضاء والزمن الماضي الذي تؤشر عليه الأفعال الماضية من مثل" كنت، كان، كنّا، صدقت "ورغم ذلك، فهذه البنية الفضائية، تضعنا أمام حقيقة أنّ الفضاء في هذا الخبر هو أرضية لانجاز الحدث المتعلّق بكفاءة إسماعيل بن يونس في كشف علامات المحب.

الخبر الثاني:

"ولعهدي بصديق لي داره المريّة، فعنّت له حوائج الى شاطبة فقصدها، وكان نازلا بها في منزلي مدة إقامته بها، وكان له بالمريّة علاقة هي أكبر همّه وأدهى غمّه، وكان يؤمل تبتيته وفراغ أسبابه وأن يوشك الرّجعة ويسرع الأوبة، فلم يكن إلاّ حين لطيف بعد احتلاله عندي حتى جيّش الموفق أبو الجيش مجاهد صاحب الجزائر الجيوش وقرّب العساكر ونابذ خيران صاحب المرية وعزم على استئصاله، فانقطعت الطرق بسبب هذه الحرب، وتحوميت السّبل واحترس البحر بالأساطيل ، فتضاعف كربه إذ لم يجد إلى الإنصراف سبيلا البتة، وكاد يطفأ أسفا، وصار لا يأنس بغير الوحدة، ولا يلجأ إلاّ إلى الزفير والوجوم، ولعمري لقد كان من لم أقدّر قط فيه أنّ قلبه يذعن للودّ، ولا شراسة طبعه تجيب إلى الهوى. "[16]

يتيح لنا الخبر الثاني رصد خاصية انتشارية الفضاء الذي وقع فيه الحدث ولكن هذه المرّة، نعاين فضاءين، أحدهما إطار لما سيحدث، والآخر فاعل فيه لما يتمتّع به من دينامية . فأمّا الأول فإنه يؤطر حركة الصديق التي تصل فضاء" المريّة "بفضاء "شاطبة" وعلى هذا الأساس، تصبح المدينتان هويّة للوافد (الضيف) والمستقبل (المضيف)وأمّا الخاصية الثانية فتتجسّد في انحصار الفضاء حيث يصبح منزل ابن حزم بؤرة فضائية مركزية لضيفه .وفي هذا السياق، تجدر الإشارة إلى أنّ الأمكنة المذكورة في مفتتح هذا الخبر غير واضحة المعالم .

ومع ذلك، فالفضاء المذكور(المريّة ،شاطبة ،منزل ابن حزم) هو مجرّد توطئة للحدث الأساس، ونعني به أثر البعد في المحب وأمّا الخاصية الثالثة، فتجلّت في انغلاق الفضاء، ولقد تبدّى ذلك من جانبين، فمن جهة يعيش صديق ابن حزم حالة انفصال /بعد عن فضاء المحبوب، ومن جهة ثانية انغلاق الفضاء الموصل الى المعشوقة. واللافت للانتباه، أنّ انغلاقه مزدوج، فثمة انسداد للبر والبحر معا وبناء على ذلك لا بد من الإقرار بأنّ الخبر "يزداد ثراء بالعناصر الزمنية والمكانية بقدر ايغاله في التاريخية، أي اعتماده على الظروف التاريخية فتبدو العناصر المكانية متعددة متمثلة في الأمكنة الأندلسية الرئيسية :المرية–شاطبة–الجزائر–البحر–الأساطيل والأمكنة الفرعية مثال داره–منزلي، وتتمثل العناصر الزمنية في الحرب الدائرة وقطبيها :الموفق أبو الجيش مجاهد وخيران صاحب المريّة وتتفاعل أحداث الخبر مع تلك الظروف التاريخية فقد شكلت الحرب العائق بين المحب ومحبوبه، وكشفت عما اختبأ عن الأعين من طبيعة شخصيته "[17] وعليه، فالفضاء في هذا الخبر مؤسّس على التقاطب، ويبدو بجلاء من خلال التقابل بين فضاء الحب البعيد وفضاء الحرب القريب.

الخبر الثالث:

"وفي إثر ذلك نكبني خيران صاحب المريّة، إذ نقل إليه من لم يتق الله عزّ وجل من الباغين، وقد انتقم الله منهم، عنّي وعن محمد ابن اسحاق صاحبي أنّا نسعى في القيام بدعوة الدولة الأموية، فاعتقلنا عند نفسه أشهرا ثم أخرجنا على جهة

التغريب فصرنا الى حصن القصر، ولقينا صاحبه أبو القاسم عبد الله بن هذيل التجيبي، المعروف بابن المقفّل ،فأقمنا عنده شهورا في خير دار إقامة، وبين خير أهل وجيران، وعند أجل الناس همّة وأكملهم معروفا وأتمهم سيادة، ثم ركبنا البحر قاصدين بلنسية عند ظهور أمير المؤمنين المرتضي عبد الرحمان بن محمد وساكناه بها، فوجدت ببلنسية أبا شاكر عبد الواحد بن محمد بن موهب القبر ي صديقنا، فنعى إليّ أبا عبد الله بن الطبني وأخبرني بموته رحمه الله، ثم أخبرني بعد ذلك بمديدة القاضي أبو الوليد يونس بن عبد الله المرادي وأبو عمرو أحمد بن محرز أن أبا بكر المصعب بن عبد الله الأزدي المعروف بابن الفرضي حدثهما – وكان والد المصعب هذا قاضي بلنسية أيام أمير المؤمنين المهدي وكان المصعب لنا صديقا وأخا وأليفا أيام طلبنا الحديث على والده وسائر شيوخ المحدّثين بقرطبة – قالا، قال لنا المصعب :سألت أبا عبد الله بن الطبني عن سبب علته، وهو قد نحل وخفيت محاسن وجهه بالضنى فلم يبق إلا عين جوهرها المخبر عن صفاتها السالفة، وصار يكاد أن يطيره النّفس، وقرب من الانحناء، و الشجا باد على وجهه، ونحن منفردان . فقال لي:نعم ، أخبرك أني كنت في باب داري بغدير ابن الشماس في حين دخول عليّ بن حمود قرطبة، والجيوش واردة عليها من الجهات تتسارب، فرأيت في جملتهم فتى لم أقدّر أنّ للحسن صورة قائمة حتى رأيته، فغلب على عقلي وهام به لبي، فسألت عنه فقي لي :هذا فلان ابن فلان، من سكان جهة كذا، ناحية قاصية عن قرطبة بعيدة المأخذ، فيئست من رؤيته بعد ذلك . ولعمري يا أبا بكر لا فارقني حبه أو يوردني رمسي، فكان ذلك." [18]

يتخذ فضاء "المريّة "في الخبر الثالث وضعية خاصة بالنسبة للراوي ابن حزم، فهو من منظوره فضاء عبور، إذ إنّه انتقل من قرطبة الى المريّة، ومنها إلى حصن القصر الواقع في الجنوب الغربي من إشبيلية وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أنّ قرطبة والمريّة تقدمان بلا تفاصيل طوبوغرافية، ولكن الجامع بينهما أنّهما مجال للفتنة، ففي قرطبة نسج نزول جند البربر ونهبهم الجانب الغربي منها وأمّا مدينته المريّة فكانت فضاء المكيدة السياسية التي كانت وراء اعتقال ابن حزم وصاحبه محمد ابن اسحاق لعدة شهور، ثم ذهابه الى حصن القصر، وبذلك تمّ الخروج من فضاء الخطر الى فضاء الأمان.

وسيكون من اليسير علينا تبيّن انتقال الراوي من جديد الى فضاء بلنسية وهنا يصبح للأمكنة وظيفة تهيئة الملتقي لاستقبال حدث الحب الذي لا يظهر إلاّ في آخر الخبر ومن ثم فالفضاء متحرّك ومتحوّل بحسب حركية ابن الحزم ومن برفقته وعلى أية حال ،يمكن النظر إلى بلنسية بأنّها فضاء للموت، إذ لم يصلها الراوي حتى أخبر بموت أبي عبد الله بن الطبني وسيدفعنا هذا إلى التأكيد على التقاطب الفضائي بين الحياة والموت، وبين الاتصال والانفصال.

ثمّ إنّ انتقال ابن حزم عبر الفضاءات السابقة لم يكن إلاّ لغاية أساسية، وهي إبراز الكيفية التي يفضي بها العشق إلى موت العاشق وهكذا تغدو العناصر الفضائية متحكّمة في بنية الخبر الذي بدأ بفضاء قرطبة وختم به وبهذا المعنى يصبح نقطة بداية ونهاية في الوقت نفسه وبفضل ذلك يستقبل الملتقي ملابسات موت" أبي عبد الله بن الطبني "عشقا للفتى الذي رآه بحيّ غدير ابن الشماس بقرطبة ،وتساوقا مع النهاية المأساويّة يجرّد مكان الفتى من كل خصوصية وصفات تدل عليه ،بل ينعت بالبعد ولعل ذلك مؤشر واضح على المصير الذي سيؤول إليه العاشق.

بل ثمّة إشارات استبقت خاتمته المفجعة ويكفي في هذا الإطار أن نستحضر ملفوظات الخبر التالي" قد نحل وخفيت محاسن وجهة بالضنى وصار يكاد أن يطيره النّفس وقرب من الانحناء..والشجا باد على وجهه.[19] ويمكن القول أيضا إنّ

نهاية المعشوق كانت امتدادا لخاتمة العاشق وذلك لتوحيد مصيرهما في الموت، وإن كانت تجربة العشق لم تبلغ غايتها المأمولة " وأنا أعرف ذلك الفتى وأدريه، قد رأيته لكني أضربت عن اسمه لأنه قد مات، والتقى كلاهما عند الله عزّ وجل[20] ولا شكّ في أن التحوّل المكاني قد أثر بشك ما في التحوّل الزمني، بل حتى في الشخصيات ومصائرها إذ إنّ ذلك ينعكس على النفوس،" فتتحوّل بدورها وتتبدّل .ومادامت الرحلة مغامرة فإنّ الذات ستعرف حالات من السكون وحالات أخرى من الاضطراب والقلق والحيرة، أي أنّ الذات ستسافر بين أماكن للإقامة وبين حالات من اللاستقرار"[21] وعلى هذا الأساس، ألفينا في الخبر الثالث المدن التي انتقل إليها ابن حزم وصاحبه مفصولة بأماكن عبور، ومن ثمّ ترتيب الفضاء بهذه الطريقة يدلّ على أنّ وظيفته تتجاوز التأطير المكاني إلى التفاعل مع الشخصيات والحدث، وبخاصة أنّ البنية الفضائيةكانت موسومة بالدائرية، فمدينة قرطبة هي منطلق الحدث(فضاء الفتنة/ الخطر)، وفي الآن ذاته هي مكان نهايته (فضاء اللقاء بين المتحابين/في الحياة والموت.)

وبناء على ما تقدم، نستطيع أن نستخلص بأنّ فضاءات" طوق الحمامة "الموسومة بالتاريخية أو الواقعية كان لها فعالية في بنية الخبر، أو بالأخص أنّها وسمت مكوّناته بسمات ميّزة سواء تجلّت فى الحدث أو الزمن أو الشخصيات.

ج – الفضاء الأليف:

يرتبط الفضاء الأليف في" طوق الحمامة "بالأماكن التي تشهد تجربة العشق، سواء أكانت متحققة أو بصدد التحقق وعلى هذا الأساس يكون هذا الفضاء محبّبا للنفس لما فيه من راحة وأمان وحميمية، وفيضا من الدفء والحنان على ما حوله ثم إنّه لا يوحي دائما على موضع لقاء المتحابين في الحاضر، وإنما قد يكون محفورا في الذاكرة، أي أ نّه ذلك المكان المستحضر من الماضي، ومن الطبيعي أن يضفي عليه ذلك هالة من الحنين المشوب بالحزن.

وليس الفضاء الأليف في" طوق الحمامة "ذا طبيعة ثابتة، فهو يتخذ صورا متعدّدة ولكنّها جميعها تشترك في توفير الشروط المساعدة على استئناس المحب بمحبوب، وعلى الأقل أن يتواص معه عن بعد، ولو كان الحب من طرف واحد.

وقد يتبدّى الفضاء الأليف في صورة مكان غير واضح الملامح، ولذلك فهو مفترض بالنسبة للملتقي ولكن، مع ذلك، بوسعنا أن نرصد أثره في المحب، وإن لم يتجاوز اللقاء بين العاشق والمعشوق حدود الوعد بالزيارة ،إذ سيذرع المحب المكان ذهابا وجيئة و إقبالا و إدبارا ويكشف لنا هذا أنّ حركته الجسدية الخارجية هي في الحقيقة حركة نفسية، تبدأ بالترقب المتوتّر، وتنتهي بالفرح الداخلي والخارجي معا ومن ثمّ يكون الفضاء الأليف في هكذا خبر[22] قد تحول إلى حالة نفسية.

ويمكن أن يتجسد الفضاء الأليف من خلال منزلين متقاربين، ولعل الذي منحه خاصية الألفة أنّه يسهل للمتحابين سبل التواصل رغم المسافة الفاصلة بين المكانين وعلى هذا النحو، يغدو البعد النسبي قربا، ما دام التسليم باليد يعوّض عدم تحقق اللقاء المباشر بين الطرفين والطريف، في هذه الحالة أن تصبح يد الحبيبة المحجوبة علامة على الأمان، بينما إذا كانت اليد مكشوفة فسيتحوّل المكان الأليف الى مكان معاد، لأنه في هذه الوضعية لن تكون الحبيبة هي التي تشير بيدها مسلّمة على المحب، وإنما هناك غريب حل محلها.

وهذا ما أفصح عنه الخبر التالي" :من بديع الوصل ما حدثني به بعض إخواني أنّه كان في بعض المنازل المصاقبة له هوى، وكان في المنزلين موضع مطلع من أحدهما على الآخر، فكانت تقف له في ذلك الموضع، وكان فيه بعض البعد ، فتسلم عليه ويدها ملفوفة في قميصها، فخاطبها مستخبرا لها عن ذلك فأجابته :إنه ربما أحسّ من أمرنا شيء فوقف لك غيري فسلم عليك فرددت عليه فصحّ الظن، فهذه علامة بيني وبينك، فإذا رأيت يدا مكشوفة تشير نحوك بالسلام فليست يدي، فلا تجاوب" [23] ويظهر من الخبر، أيضا، أنّ تأمين المكان الأليف فع قصدي ما يعمق ويكثلف من أنسه . وفضلا عن ذلك، فالرؤية المتبادلة بين المتحابين تتمّ من موقع عال " موضع مطلع " وهذا يجعل المرئي واضحا وأكثر إشباعا للعين وللروح المتلهفة لحبيبها وقد تتيح لنا أخبار"طوق الحمامة "التعرف على صورة أخرى للفضاء الأليف، فيبدو فضاء مؤقتا وذلك لأنه منطقة عبور للمتحابين ،ومن نماذجهما نعاينه في الخبر الذي تصدّر" باب من أحب من نظرة واحدة "إذ نجده مرة موضعا عاما لاجتماع النساء، ومرة ثانية موضعا منقطعا عن أعين الناس .وهذا يعني أنه قد يكون مكشوفا أو محجوبا . ويظهر لنا ذلك بجلاء من خلال تعلّق يوسف بن هارون الشاعر بجارية وهو مجتاز عند باب العطارين بقرطبة حيث تجتمع النساء.

ثم إنّه لا يكتفي بميله العاطفي إلى المرأة و إنما انصرف عن طريق الجامع وتبعها إلى أن مرت بالقنطرة، وبلغت المكان المعروف ب"الربض "ثم إنّ راوي الخبر يعلمنا بأنّ الجارية سألت من يقتفي أثرها عن غايته منها واللا فت هنا أنّ المرأة هي من بادرت بالحديث ولم تفعل ذلك ، إلا بعدما اختارت المكان المناسب للكلام وبالتحديد حينما" صارت بين رياض بني مروان رحمهم الله – المبنية على قبورهم في مقبرة الربض خلف النهر نظرت منه منفردا عن الناس لا همة له غيرها، فانصرفت إليه فقالت له : مالك تمشي ورائي ؟ فأخبرها بعظيم بليّته بها " [24] ولاشك أنّ اختيار هدا المكان لم يكن اعتباطيا وإنما لأنه يحقق شرط الخلوة والأمان، ونستطيع أن نصف هذا الفضاء بالانفتاح، أي أ نّه خارج سلطة الرقيب.

وأيضا لأنّ المحب موعود بلقاء من أحب بنظرة واحدة في المكان نفسه ومع ذلك ،يظل الانفتاح قائما ، لأنّ الملتقي لا يجد قرينة تؤكد تحقق اللقاء في المستقبل بين الشاعر يوسف بن هارون والجارية التي تمكّنت من قلبه، وهذا ما تطلعنا عليه خاتمة الخبر" فقال لها : يا سيدتي، وأين أراك بعد هذا؟ قالت حيث رأيتني اليوم في مثل تلك الساعة من كل جمعة، فقالت له :إما تنهض أنت أو أنهض أنا فقال لها : انهضي في حفظ الله ، فنهضت نحو القنطرة ولم يمكنه اتباعها لأنها كانت تلتفت نحوه لترى أيسايرها أم لا، فلما تجاوزت باب القنطرة أتى يقوفها فلم يقع لها على مسألة"[25] ومن الطبيعي أن يتحول هنا الفضاء الأليف إلى فضاء موحش لانقطاع المحبوبة عنه ,وبخاصة أنّ اختفاءها تحقق بتجاوزها" باب القنطرة ."

ولا يقتصر ذالك على وقت الاحتجاب، وإنما سيجرّد الفضاء من دلالة الألفة، وسيستغرق زمنا يمتد من" ذلك الوقت " إلى" الآن"، أي إلى اللحظة التي روى فيها يوسف بن هارون ما وقع له،بينما اللقاء الثاني بين المتحابين غير مذكور في خبر ابن حزم لأنه حجب ما جرى بينهما بعد رحيل الشاعر إلى سرقسطة حيث تقيم الجارية، ومن ثم توجّب على الملتقي بأن يملأ هذا الفراغ بالرجوع إلى مراجع أخرى ذكرت فيها هذه القصّة كاملة [26]وهذا ما نفهمه من قول يوسف

بن هارون " فوالله لقد لازمت باب العطارين والربض من ذلك الوقت إلى الآن فما وقعت لها على خبر ولا أدري أ سماء لحستها أم أرض بلعتها، وإنّ في قلبي منها لأحرّ من الجمر، وهي خلوة التي يتغزّل بها في أشعاره ثم وقع بعد ذلك على خبرها بعد رحيله في سببها إلى سرقسطة في قصة " [27] ونستشف من المقطع الختامي للخبر أنّ الحب هو الذي يرسم الفضاء الأليف ويلونه بألوانه الحالمة والورديّة.

وفضلا عما سبق،قد تؤشر هندسة الفضاء بأنواعه عن استراتيجية معينة في تصوير بعض فضاءات"طوق الحمامة "التي تخضع أحيانا الى رؤية شاملة إلى الفضاء، وفي الوقت نفسه قد تكشف عن تراتبية مكانية محدّدة حيث أنّ الرائي ينتقل من الخاص إلى العام فالخاص، وهذا ما نلمسه في الخبر الوارد في" باب الطاعة"،حيث يخبرنا الراوي أن مقدّم بن الأصفر كان يترك الصلاة في مسجد" مسرور "الواقع بمكان سكناه ليصلّي في الليل والنهار بالمسجد الذي بشرقي مقبرة قريش بقرطبة الموازي لدار الوزير أبي عمر أحمد بن محمد بن حدير، وذلك كلّه من أجل عشقه لعجيب فتى الوزير .ونلاحظ هنا ذكر المسجد(الفضاء الخاص)ثم المناطق المجاورة له(الفضاء العام)فالعودة إلى المسجد(الفضاء الخاص)وهذا الانتقال في المكان لم يكن عشوائيا، وإنما كان لغرض الإضاءة أكثر على الحدث، وشحنه بالتوتر كما لا يخفى ما في المسجد من قداسة وجلال وانفتاح على ما هو روحاني. وبهذا الصدد يقول الخبر" :في هذا المسجد كان مربض مقدّم بن الأصفر أيام حداثته لعشق بعجيب فتى الوزير أبي عمر المذكور، وكان يترك الصلاة في مسجد" مسرور "وبها كان سكناه، ويقصد في الليل والنهار إلى هذا المسجد بسبب عجيب ،حتى أخده الحرس غير ما مرة في الليل حين انصرافه عن صلاة العشاء الآخرة، وكان يقعد وينظر منه إلى أن كان الفتى يغضب ويضجر ويقوم إليه فيوجعه ضربا ويلطم خدّيه وعينيه، فيسرّ بذلك ويقول: هذا والله أقصى أمنيتي والآن قرّت عيني، وكان على هذا زمانا يماشيه"[28]

فعلى الرغم ما للمسجد من فضائية استثنائية لبعديه الديني والدنيوي يغدو الفضاء جليا بامتياز، فيتعلّق العاشق بالمعشوق في بيت الله، ثم يصبح الخرق الثاني في العلاقة الذكورية، فتكبر المفارقة حينا يصبح تعذيب الجسد ذروة الألفة ،وكل ذلك سيجعل الفضاء الأليف عجائبيا، وبالأخص حينما انطوى على حدث غير متوقع في مكان مقدس.

كانت هذه بعض الصور التي تجسّد من خلالها أنواع الفضاء الذي احتضن تجربة العشق بسلام وصفاء روحي في "طوق الحمامة "فضاء معاديا للمتحابين وغالبا ما تجلّى في السجون وساحات الحروب والأماكن الخاضعة للرقابة.

الهوامش :

1-إبراهيم خليل ,بنية النص الروائي،الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت ،لبنان، منشورات الاختلاف,الجزائر،ط،سنة2010،ص131.

2-حميد لحمداني،بنية النص السردي،من منظور النقد الأدبي،المركز الثقافي العربي للطباعة و النشر و التوزيع،الدار البيضاء،المغرب،بيروت،لبنان،ص 67 .

3- محمد عبيد صالح السبهاني،المكان في الشعر الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة،دار الأفاق.العربية،القاهرة،مصر،ط2 ،سنة 2007،ص 107.

4-حسن بحراوي،بنية الشكل الروائي،المركز الثقافي العربي،بيروت،لبنان،الدار البيضاء ،المغرب،ط1 ،سنة 1990 ،ص 107.

5- نزار وجيه فلّوح،مقدمة طوق الحمامة في الألفة والألاّف، ص17.

6- ينظر ابن حزم، طوق الحمامة في الألفة و الألاّف، رسائل ابن حزم الأندلسي،ص 101 .

7- المصدر نفسه،ص110 .

8-ينظر المصدر نفسه، ص299، 300 .

9-ينظر المصدر نفسه ، ص 167.

10- عثمان بدري،وظيفة اللغة في الخطاب الروائي الواقعي عند نجيب محفوظ،د.ت موفم للنشر والتوزيع،الجزائر،سنة2000،ص144 11- ينظر ،ابن حزم،رسائل ابن حزم الأندلسيّ، ،ص 463، 464 .

12-عمر عبد الواحد،بنية الخبر،دراسة في طوق الحمامة لابن الحزم،دار الهدى للنشر والتوزيع، المنيا،مصر،سنة 2004 ،ص92 ،93 .

13- ابن حزم،طوق الحمامة في الألفة والألاف ،رسائل ابن حزم الأندلسي ،ص 94 .

14 - المرجع نفسه ص 84، 85 .

15-المرجع نفسه ص 114

16- المرجع نفسه ،ص216، 217 .

17- بنية الخبر،دراسة في طوق الحمامة لابن الحزم، ،ص91.

18-ابن حزم، طوق الحمامة في الألفة والألاف، رسائل ابن حزم الأندلسي،ص 261، 262 ،263 .

19- المصدر نفسه ،ص262 .

20- المصدر نفسه ،ص263 .

21 –معتصم محمد بنية السرد العربي،من مساءلة الواقع إلى سؤال المصير،الدار العربية للعلوم، ناشرون ، بيروت ،لبنان ، ،منشورات الاختلاف،الجزائر،ط1 ، سنة 2010 ،ص 98 .

22 -ابن حزم، طوق الحمامة في الألفة والألاف، رسائل ابن حزم الأندلسي،ص11 .

23-المصدر نفسه ،ص189

24- المصدر نفسه ،ص121 .

25-المصدر نفسه ،ص121 ،122

26-ينظر الحميدي ،أبو عبد الله محمد بن أبي نصر:جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والنشر،القاهرة،مصر،سنة 1966 ،ج1 ،ص 370، 371

27-ابن حزم، طوق الحمامة في الألفة والألاف، رسائل ابن حزم الأندلسي،ص122 .

28- المصدر نفسه ،ص156 .